المحرّمات الجنسية

بسط ونقد لدعاوى اصحاب الثورة

في شؤون الزواج والحب والغيرة

لا ريب أن ثمّ ما يصحّ أن ندعوه بالثورة الجنسية العالمية . فالشكّ في مُثُل الجنس العليا ، وهو أول طلائع هذه الثورة ، والكفر بكل ما أُحيط به الجنس من مقدّسات ومحرّمات ، وهو أقسى عناصرها ، يتفشيان وينتشران في كل قطر من أقطار المعمور . فالحبّ المطلق الذي لا يعتريه النقص ، والزواج المؤبد الذي لا يحتمل النقض ، والغيرة العمياء والعفّة والطُّهر المتنافيان من كل زغل ، وما يلحق هذه من عواطف وفضائل واخلاق اصبحت مداراً للجدل العنيف وهدفاً للنقد القاسي . ولم يعد الناس يصدقون في هذه المسائل التي تلامس افئدتهم وتحرك مشاعرهم ، كلّ ما كان يُلقى اليهم بلهجة الجزم وصيغة الاطلاق . فالايمان والتسليم اللذان كانا صبغة العصور السالفة حلّ محلهما الكفرُ بكل معتقد من معتقدات الجنس ، والرغبةُ في الانطلاق من كل قيد والانعتاق من كل رق او عبودية من عبوديات الجنس . ولا تقتصر هذه الثورة على الأوساط العادية — كما هو في معظم الثورات — انما هي تتحيّز لها ارقى الأوساط وتختار اذكى العقول . ومن هنا خطرُ هذه الثورة وعمق الأثر الذي لابدّ تاركتهُ في العمران . فالذي يسمع اسم برنارد شو وولز وبرتراند رسل وبن لندسي وماري دنكان وعشرات غيرهم من قادة الفكر العالمي في عصرنا هذا ، ويعلم أن هذه العقول في طليعة الداعين الى صدع كل قيد من قيود الجنس وتمزيق كل سجف من سجوفه ، لا يسعهُ الاّ ان يفكر تفكيراً عميقاً فيما سوف يؤول اليه امر هذه الثورة وما ستفضي اليه من نتائج بعيدة أو قريبة الأثر . فهي ثورة تهزّ الحياة في اصل معاقلها والعمران من اساساته البعيدة . واذا لم يكن بناء هذه الحياة متيناً فلا ريب في أنهُ يتصدّع ، ويقوم مقامهُ بناء جديد تكون هيدونية (فلسفة اللذة غرضُها) اصحابا هؤلاء وغيرهم ممن يبشرون بمذهب اللذة القديم اظهر صفاته وأبرز صوره

وعمود دعوتهم واهم ركن من اركانها أن معظم هذه المحرّمات ، كما يمارسها العالم المتمدن الآن ، لا يبرّرها عقل ولا تقرّها تجربة . وهم — لذلك — يدعون الى استعمال الفكر

وتحكيمه في كل مسألة من مسائل الجنس والرجوع اليه في كل طريقة من طرائقها. ولكن هل تحكيمنا العقل والرجوع اليه في كل مسألة من مسائل الجنس يفرضان علينا ان نستخلص من هذه المحرمات جملة واحدة، كما يريد نفر من اصحاب هذه الفلسفة بلغت سهم الحماسة حدّ الانفجار او درجة الغليان أن صح التعبير؟ وأي عقل واي تفكير في ان نطّرح في عشية وضحاها اختيار البشرية وزبدة تجاربها آلاف السنين؟ وهل نأمن بعدها ان لا يقوم الجيل الآتي فيخترع من المحرمات ويُحكم من القيود والاصفاد ما يفوق تلك في قوة الأسر وإحكام التقييد؟

وعلى كل فلنرجع الى العقل ونحتكم اليه. ولنرَ بعدها هل يُبيح لنا هذا العقل ان نطّرح دفعة واحدة كل هذه المحرمات او ان هناك عدداً منها كان في الحقيقة مطية العمران ومعراج الرقي؟

فما يدعو اليه قادة هذه الثورة أن نظام الزواج في حالته الراهنة يجب أن يُلغى ويحلّ محلّه نوعٌ من الرفقة الحرّة يكون اساسها التفاهم والاستقلال الشخصي المطلق لكل من الزوجين. وذلك بان لا يتقيدا بقيد ويرتبطا برباطٍ مما يقيّد ويرتبط به الناس ممن لا يزالون يجرون على نظام الزواج الراهن. وهذا راجع في الأكثر الى ايمانهم الشديد بان غاية المرء في هذه الحياة التي يجب أن يُسعَى لها كل السعي هي الحصول على أكبر مقدار من اللذة. وهذا — في رأيهم — غير متيسّر في نظام الزواج الحاضر، لأنّ افتراض دوام الحبّ بين الزوجين ثابتاً غير منقوص، وهو ما يُبنى عليه ويستند اليه الزواج في وقتنا الحاضر، اصبح، في نظرهم، خرافة من الخرافات التي لم يمدّ في اجلها الا الجهل والرياء الانسانيان. ويُفهم ضمناً وصراحةً من كلام هؤلاء المجددين ان التناسل وتربية البنين والأسرة هي في الاعتبار الثاني، وان الغاية الأولى من الغريزة الجنسية هي ما ذكرناه من الحصول على أكبر قسط من اللذة

وعلى فرض أن غاية المرء في الحياة هي هذا الذي يبشرون به ويدعون اليه من الحصول على اكبر مقدار من اللذة. وعلى فرض أن العمران يستطيع ان يستمرّ ويتقدّم بدون نظام العائلة، فهل فيما يدعون اليه ويبشرون به من حبٍّ حرٍّ مطلق ما يحقق هذا الغرض؟ والجواب القاطع على هذا السؤال، لم يجيء به طريقة جدلية. بل جاء على شكل فاجعة اليمة كان بطلها أحد المتحمسين لهذه الفلسفة الجديدة

أرادت ماري دنكان — وهي من اشدّ دعاة هذه الفلسفة — أن تطبق هذه النظرية على نفسها تطبيقاً فعليًّا. فكانت تطرح نفسها على المجهول بها دون قصد او اعتدال واضحت تنتقل من حبٍّ الى حب مسرفة في ذلك اشدّ اسراف علّها تظفر بهذا الذي تنشده من سعادة

غير مكونة او مقيدة . ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لم يشفع لهذه الكاتبة كل ما كان لها من جمال او نبوغ . فكان الرجل اذا مل عشرتها ينبذها كما ينبذ المتاع البالي . ولكنها اذ لم تزن في سيمة الصبا وطراوة الشبيبة لم تكن تعدم معجبين جدداً بها . ولكن سرعان ما فقدت هذه السلاح الوحيد واضحت تلك الايدي التي كانت تمد اليها مرحبة تدفعها بقسوة دونها كل قسوة . وقد ادركت هذه الكاتبة مقدار ما جنته على نفسها بطيشها ورعونتها ، وادركت ايضاً ما قيمة أن يكون للمرأة رفيق يشاطرها وتشاطره الافراح والآتراح . ويرتبط بها برباط الحب المتدل والرفقة الصحيحة اللذين يقويها ويثبتها البنون . ادركت كل هذا وادركت مقدار ما خسرته . فحاولت ان تضع حداً لحياتها المعذبة اكثر من مرة . ولكن القدر كان يأبى عليها في كل محاولة الا ان تتجرع كأسها حتى الثمالة

فاذا كانت هذه عاقبة مثل هذه الكاتبة التي كان لها من ذكائها وجمالها ما كان ، فاذا تكون عاقبة اللاتي لا حظ لهن من الذكاء ولا نصيب من الجمال ؟ والواقع المثبوت أن آلام المرأة وشقاءها في جميع العصور مشتقان من هذا الذي يدعو اليه فلاسفتنا . فهؤلاء النساء اللواتي لسن بالسقوط وتقسو ما تقسو عليهن وتشقين هذا الشقي الاجتماعي المؤيد هن تطبيق فعلي لهذه الفلسفة الخبيثة

وقد يقال أن استقلال المرأة استقلالاً اقتصادياً يفك عنقها ويجعلها في غنى عن الرجل . وقد يصح هذا لو كان ما تطلبه المرأة من الرجل لا يعدو الشراب والطعام . ولكن الحقيقة أن المرأة تطلب في اول ما تطلبه من الرجل الحب الخالص الصحيح ، ولن يرضيها الا هذا مهما بلغ من ثروتها واستقلالها الاقتصادي

ومما يفشل هذه الفلسفة التي يدعون اليها أن في طبيعة الحب ذاته ما يجعل الاستمتاع المطلق مضعفاً لقوة الحب نفسه . فالثابت أن الحب يزداد قوة وحدة بقدر ما يوضع في طريقه من حواجز وموانع . وقيمة الحب النفسية والحسية ايضاً تتوقف على مقدار ما يبذله المتحابان من جهد في سبيل تخطي هذه الحواجز . فاذا كانت هذه الحواجز قوية بحيث تبعث اقصى كوامن النفس ، فالحب بالغ حده وغايته . ويحسن أن نذكر انه ليس ثمة صنف من اصناف الحيوان تسلم انثاه نفسها الى الذكر عند أول دعوة من دواعي الحب . وحكمة الطبيعة في هذا لا تقاس ولا تقدر . فهذا التهرب والامتناع من جانب الأنثى يذكي عناصر الغريزة ويضاعف زخم العاطفة . ويجب الا ننسى أن هذا التهرب وهذا الامتناع من جانب الأنثى يسهلان عملية الانتخاب الطبيعي اذ يجعلان فرصة التناسل قاصرة على اصح الذكور في الغالب الاعم

وكما يحسب غلاة هذه الثورة نظام الزواج الراهن جناية اصرت عليها العصور كذلك هم يحسبون ان كلّ ما يحيط بهذا النظام وبلابسهُ من عواطف ومُثُل عليا يشترك معهُ في الجرم والخطيئة . والغيرة الجنسية ، وهي الزم ما يلازم الزواج من عواطف ، هي في نظر الكثيرين منهم جرمٌ لا يسوّغهُ الاّ ما جُبلنا عليه من انانية حمقاء وانرة عمياء . وهي في نظر شطر منهم ليست جرماً بسيطاً فحسبُ ، بل هي آفة من آفات العمران التي تسمّم محيط العائلة وتنشر فيه أول بزور العداء والرياء والاثرة . وهكذا يحمل الصغار معهم الى الحياة مواد التدمير وعناصر التخريب . فالحروب العامة والاحقاد الجنسية التوارثة والجتمع الاقتصادي وما يتبعهُ من مشاحنات ومشاورات سياسية مرجعها ومنشأها ، في رأي اصحابنا هؤلاء ، هذه الغيرة الجنسية . وهذا هو دأب الكثيرين من أصحاب التحليل النفسي من حيثُ الميل الى التعميم وتحميل الشيء اكثر مما يستطيع ان يحتمل . وعلى كلّ لسنا ننكر ان هذه الغيرة قد تكون في بعض الأحيان سبباً فيما ينشأ من مشاحنات عائلية . ولكن يجب الاّ يغيب عن الذهن ان للانسان عواطف غير هذه العاطفة وغرائز غير الغريزة الجنسية . ولكنّ اصحابنا ، وهذا وجه الغرابة ، لا يودّون ان يُدخلوا هذه العواطف والغرائز في حسابهم !! ان فهم الطبيعة البشرية لا يكون على هذا النحو من التبسط وحصر جميع مظاهر السلوك الانساني بهذه العاطفة وعزوها اليها . وحبذا لو كانت الطبيعة البشرية من البساطة بهذا المقدار ! اذاً لكان من السهل جدًّا على أطباء العمران وأساة البشرية ان يجدوا الدواء الناجع لهذه الآفات الاجتماعية التي تكاد تأتي العمران في اساسه

وهي — هذه الغيرة الجنسية — في رأي اصحابنا — آفة الحب التي ما تفتأ دقيقة واحدة تعمل على تقليص الحب بين المتحابين وافقاره . وهذا صحيح بحسب الظاهر . فليس ما يضعف أسباب الحب ويولّد النفرة بين الزوجين ككثرة المشادات . ولكن ليست هذه المشادات التي تقوم وتنشأ من الغيرة الجنسية . فهذه ، في الحقيقة ، دفاع عن الحب ومحاولة لتثبيته . وهي كارتفاع درجة الحرارة في المريض تنذر بالخطر وتدعو الى المعالجة العاجلة . فالغيرة لا تفيق من غفوتها ولا تتكشّف ما دامت أواصر الحب قوية سليمة . ولكن هذه الغيرة لا تتوانى دقيقة واحدة في الدفاع متى تشعر أن سلطان الحب أصبح مهدداً . فالغيرة ليست عمياء — كما يود أن يصفها بعض المفكرين — انما هي بصيرة كل البصيرة . فهي لا تفتح عينيها ولا تنهض من رقدتها الاّ اذا غزا غازٍ مملكة الحب — كالكريات البيضاء في الجسم لا تنشط الى الدفاع والعمل إلاّ اذا هدّد الجسم خطرٌ من الخارج . فالغيرة ليست اذاً بسبيل مما يُنسب اليها من تقليص الحب وإفقاره . والصحيح أن يقال

انها حارس الحب وحاميه الذي لا تأخذه سنة من النوم أو النعسة

وقد يتبادر الى الذهن أن هذه المحرّمات الجنسية لا تنتشر إلاّ بين الأقوام المتحضّرة، كما يتبادر الى الذهن أيضاً ان هذه المحرمات مفقودة فقداً نسبيًّا أو مطلقاً بين الأقوام المتوحشة لقلة ما يخضعون للنواهي والأوامر الاجتماعية ولقرب عهدهم بحياة الحيوانات الحرة الطليقة. ولكن الواقع اثبت أن الرجل المتوحش لهُ من هذه المحرمات عداد ما للرجل المتمدن. فالمتوحش — كالمتمدن — يُحب الأثرة في الحب ويحب التكتم الى حدود الرياء الشديد، كما دلّت على ذلك المباحث التي قام بها الدكتور مالينوسكي وغيره بين القبائل المتوحشة

فحصر هذه المحرمات بالرجل المتمدن وقصرها عليه ليس في شيء من صدق النظر فهي تشيع شيوعاً ماثلاً بين الرجل المتمدن والمتوحش على السواء مع شيء من التعديل في بعض هذه المحرمات اقتضتهُ طبيعة العمران والحياة الاجتماعية عند مختلف الاجناس. ومن هذه المحرمات ما تشترك جميع الاجناس فيه وتمارسهُ دون أن يكون ثمّةَ دليلٌ على أن هذا الاشتراك ناجم في جملته عن التواطؤ او العدوى الاجتماعية. وشمول هذه المحرمات على هذا الشكل المستقل هو الذي يحملنا نفكّر كثيراً قبل أن نحدثنا النفس بالتخلص منها. فهي خلاصة اختبار البشرية جمعاء وزبدة تجاربها. وما أفادتهُ البشرية في مئات الآلاف من السنين وبكثير من التضحيات لا يصحُّ أن يُطرح ويُلغى من بيننا الاّ اذا ثبت لنا ان الربح سوف يربي على الخسارة. والذي نعتقده أنهُ لو كانت هذه المحرمات ضارة لاتت على نظام العمران من قديم لا سيما أنها تتصل بأهم وأعظم عناصر الحياة البشرية. ونستطيع أن ندرك الخطر الذي يتعرض لهُ العمران لو أُلغيت هذه المحرمات دفعة واحدة اذا علمنا أن بعض شعوب الباسفيك التي رضيت أن تجري هذه التجربة على نفسها توشك أن تنقرض من الوجود. والتاريخ حافل بالأمثلة والشواهد على ان الشعب الذي كان يتساهل في أمور الجنس كان يصير الى الانقراض. فحضارات اليونان والرومان كان للتساهل الجنسي الاثر الاكبر في تدميرها على ما نعتقد

نستخلص من هذا ان هذه المحرمات التي قاومت صروف الدهر وصبرت على مرّ الزمان هذا الصبر الذي لم يقو عليه غيرها من أنظمة العمران لا بد أن يكون لها الشيء الكثير الذي يشفع لها

* * *

ولكن اليس لهذه المحرّمات ما يشفع لها ويدعو الى بقائها سوى هذا الاثر السلبي ؟ اليس لها من قيمة موجبة في العمران ؟

من المجمع عليه أنهُ بقدر ما يوضع في سبيل الغريزة الجنسية من حواجز يكون المجال أوسع للتسامي بها من المستوى الحسي الى المستوى الفني . وعلى هذا تصبح هذه المحرمات الجنسية دافعاً قوياً في الانتاج الفني والعلمي أيضاً . والذي يدرس أحوال البلدان المختلفة دراسة دقيقة يجد أن أعظمها انتاجاً فنياً اكثرها مراعاةً لهذه المحرمات . والفنان — كما يقول نيتشه — أبعد ما يكون عن تمثيل نفسه في فنه . فهو لكل الاجيال بعيد عن كيانه وطبيعة نفسه . فهوميروس لم يكن لينجح في تصوير اخيل وغوته في تصوير فوست لو أن الأول عاش كما عاش أخيل والثاني كما عاش فوست . والمتنبي لو أتيح لهُ أن ينال من السعادة والسلطة ما كان يرغب ويؤمل لما خلّف هذه القصائد التي تمثل الضعف والقوة تمثيلاً لم يُيسَّر لأحد غيره . وابو العتاهية مثال طريف على هذا التناقض بين حياة الفنان الصحيحة وبين الروح السائدة في فنه . ونيتشه نفسه أفضل ما نقدمهُ من أمثلة على هذا التناقض بين حياة الفنان اذ يطلق النفس على سجيتها وبين ما يتكلّفهُ من تصور أمور بعيدة كل البعد عما في طبيعته . فالمشهور عن نيتشه أنهُ كان مضرب الامثال في دماثة الخلق ورقة الجانب والعطف ولكنهُ مع ذلك كتب اقسى ما تستطيع أن تخطّهُ يراعة كاتب أو فيلسوف في ذم الرحمة والعطف على الضعيف وكل مظهر آخر من مظاهر الرقة والطراوة الخلقية

شرق الاردن أديب عباسي

الميكروبات الخفية تستجلى

اهم اكتشاف طبي بعد عهد باستور

وكلام على « البكتيريوفاج » القاتك بالجراثيم

بين رجال الطب في اميركا عالمٌ كان حتى عهد قريب خامل الذكر ، وهو استاذٌ ديدنهُ السكينة في عمله ، والوداعة في خلقه ، دأب في مباحثه الكيماوية ، حيث تُربّى الجراثيم وتفحص بالمجاهر في معمل احدى جامعات الطب فوفق لمدّة مكتشفات خطيرة سوف تؤول الى تغلب الطب على طائفة من الامراض العقامة

ونعني بذاك المكتشف ، الدكتور « أرنست كندل » استاذ الباحث البكتيريولوجية في مدرسة الطب في جامعة نورثوسترن بمدينة شيكاغو ، الذي اعلن للملأ من بضعة اسابيع مكتشفاته الطبية الخطيرة فقابلها العلماء في الخافقين بالارتياح واعتبروها اعظم خطوة